القيم التّعبيريّة للتّركيب الاستفهامي في شعر ابن عُنين

بانة خبير*، د.ميسون شوّا**

*طالب دراسات عليا (ماجستير)، قسم اللّغة العربيّة وآدابها، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة حلب

**أستاذ مساعد، قسم اللّغة العربيّة وآدابها، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة حلب

المُلخَّصُ

التّركيبُ أحدُ أهمِّ مستويات الدّرس اللغوي، وهو على أنواع، منها التّركيب الاستفهامي الذي تتصدره إحدى أدوات الاستفهام التي تعبّر عن معنى محدّدٍ يميزها من غيرها من بقيّة الأدوات.

ويسعى هذا البحثُ إلى النّظر في دلالات التّركيب الاستفهامي في شعر الشاعر الدّمشقي ابن عُنين الذي عاش في القرن السابع الهجري، وعُرف بجودة شعره، وتفننه في أساليب القول.

يبدأُ البحثُ بمقدّمةٍ عن مستويات الدّرس اللّغوي وتعريف بالتركيب لغةً واصطلاحًا، وحديثٍ عن أسلوب الاستفهام وأدواته، منتقلًا إلى التعريف بابن عُنين، جاعلًا من شعره ميدانًا تطبيقيًّا للبحث في القيم التعبيرية للتركيب الاستفهامي عنده، معتمدًا المنهجين الوصفي والتحليلي الأسلوبي بتقسيم البحث بحسب الأدوات التي استعملها ابن عُنين في شعره وما حملته تلك الأدوات من معانٍ عكست تجربته الشعورية في أغراضه الشعرية المختلفة، مستخلصًا أبرز النتائج التي وصل إليها البحث، ولعلّ من أهمّها تعدّد الدّلالات الشّعريّة لأدوات الاستفهام، وَفق السياق الذي وردت فيه ولاسيّما التعجب الإنكاري.

الكلمات المفتاحيّة: التركيب – الاستفهام – الشّعر – ابن عُنين.

ورد البحث للمجلة بتاريخ 2023/3/15م

قُبل للنشر بتاريخ 2023/06/15م

المقدّمة:

تُعَدُّ اللّغة ظاهرة اجتماعية مُهمّة في التواصل والتأثير، ناهيك عن أنّها أداة التّفكير والرابطة التي تجمع أبناء المجتمع الواحد. وقد اهتمّ الباحثون بدراستها اهتمامًا بالغًا، ودرسها علماءُ اللّغة على مستويات أربعة هي المستوى الصوتيّ، والصرفيّ، والنحويّ أو التركيبيّ، والمعجميّ. أمّا المستوى الأول (الصوتي) فيقسم على قسمين: علم الأصوات العام، ومادته الصوت المفرد، وعلم الأصوات التشكيلي الذي يصف أصوات لغة معيّنة ويصنّفها على أساس المتكلمين باللغة. وأمّا المستوى الثاني فهو الصرفي أو مستوى الصيغ اللغوية التي تظهر في التغييرات التي تمس صيغ الكلمات فتُحدث معنًى جديدًا. وأمّا المستوى الثالث فهو المستوى النحوي أو التّركيبيّ الذي يختصّ بنظم الكلمات في جمل أو مجموعات كلاميّة. وأمّا المستوى الرابع فهو المستوى المعجمي الذي يختص بدراسة الكلمات المفردة، فيبحث عن أصولها، والتطورات التاريخية التي تجري عليها، ومعناها التاريخي والسياقي وما إلى ذلك[1]. ومهما يكن من أمر، فإنّ هذا البحث يهتمُّ بالمستوى التركيبيّ ليس بالوقوف عند حدود النظر في الجملة وأنماطها وعلاقاتها الشكلية، بل بالتفتيش عن المعاني التي تعبّر عنها[2] مُخصصًا هذا بالتركيب الاستفهامي الذي تتعدد دلالاته باختلاف أدواته.

أوّلًا- التّركيب لغةً واصطلاحًا:

1- التركيب لغةً:

تَدورُ دَلالةُ الجَذرِ (ركب) عَلى مَعْنَى التأليف والضّمّ والجمع، "رَكَّبَ الشيءَ: وَضَعَ بَعضَه عَلَى بعضٍ، وَقَدْ تَرَكَّبَ وتَراكَبَ... والرَّكِيبُ: يَكُونُ اسْمًا للمُرَكَّبِ فِي الشيءِ، وشيءٌ حَسَنُ التَّرْكِيبِ. وتقولُ فِي تَركِيبِ الفَصِّ فِي الخاتَمِ والنَّصل في السَّهم: ركَّبتُهُ فتركَّبَ"[3]. وفي المعاجم الحديثة "تجمُّع من الكلمات غالبًا ما يكون مترابطًا

(1) يُنظر: **عبد العزيز**، محمد حسن: **علم اللغة الحديث**، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2011م، ص198-202. ويُنظر: **قدور**، أحمد محمد: **مبادئ اللسانيات**، دار الفكر، دمشق، ط3، 2008م، ص11.

(2) يُنظر: **قدور**، أحمد محمد: **مبادئ اللسانيات**، (مرجع سابق) ص271.

(3) **ابن منظور**: **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، 432/1، مادة (ركب).

بشكل لا يمكن معه فهم معناه الكُلّيّ بفهم مفرداته. علم التَّراكيب: علم النحو"[1]. والتركيب "جعل الأشياء المتعدّدة بحيث يطلق عليها اسم الواحد"[2]، فالتركيب إذن جمع لغير كلمة تكون بمنزلة الكلمة الواحدة.

2- التركيب اصطلاحًا:

تقترب الدَّلالة الاصطلاحيَّة للجَذْر (ركب) مِنَ الدَّلالة اللُّغويَّة التي تعني الجمع والنظم. وهو في النحو على أنواع: منها التركيب الإسنادي، والمزجي، والإضافيّ والعدديّ[3]. ويُمكن أن نضيف إلى الأنواع الأربعة السابقة الأساليب النحويّة فنعدّها مع ما تألفت منه تركيبًا، من مثل: التركيب الشرطي، والاستفهامي، وما إلى ذلك.

ثانيًا: التركيب الاستفهامي وأدواته:

1- الاستفهام: يُعرَّف الاستفهام بأنّه "استعلام ما في ضمير المخاطب. وقيل: هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن، فإن كانت تلك الصورة وقوع نسبة بين الشيئين، أو لا وقوعها، فحصولها هو التصديق، وإلا فهو التصور"[4].

والفرق بين معنى التّصديق ومعنى التصوّر أنّ التصديق هو السؤال عن الجملة التي بعد كلمة الاستفهام أهي صادقة أم كاذبة؟ أما التصوّر فالسؤال عن تصور المستفهم عنه وليس عن صدقه[5].

---

(1) **عمر**، أحمد مختار، وآخرون: **معجم اللغة العربية المعاصرة**، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1429 هـ-2008م، 932/2، مادة (ركب).

(2) **التهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج. نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي. الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون- بيروت، ط1، 1996م، 423/1.

(3) يُنظر: **اللبدي**، محمد سمير نجيب: **معجم المصطلحات النحوية والصرفية**، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمّان- الأردن، ط1، 1985م، ص95.

(4) **الجرجاني**، الشريف علي: **التعريفات**، حققه وقدّم له ووضع فهارسه: إبراهيم الأبياري، دار الريان للتراث، مصر، 1403هـ (تاريخ المقدمة)، ص37.

(5) يُنظر: **الراجحي**، عبده: **التطبيق النحوي**، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 1420هـ-1999م، ص301-302.

2- أدوات الاستفهام: تُقسم أدوات الاستفهام قسمين: حرفان، وأسماء. فأما الحرفان فهما الهمزة و(هَلْ)، وأما الأسماء فهي: ما، ومَنْ، وأيّ، وكم، وكيف، وأين، ومتى، وأيان. فأما الهمزة فللتصديق وللتصور، وأما (هَلْ) فتختصّ بالتصديق، وأمّا الأسماء فتكون لطلب حصول التصور[1].

3- القيم التعبيرية في التركيب الاستفهامي:

يحمل التركيب قيمة فنيّة تعبيريّة يوظّفها الشاعر لنقل تجربة أو إحساس، ويُقصد "بهذا المصطلح القيمة/القدرة التي يحملها كلّ نوع من أنواع الأساليب /الظواهر التركيبية والتصويرية والموسيقية والدلالية، ويعمل التّحليل الأُسلوبي على الربط بين هذه القيمة وجوانب التّجربة الشعرية، فيتشكّل الحضور الجماليّ ويغدو مُؤثِّرًا في المتلقي أي يُحقّق متتالية التوصيل والتواصل"[2]. ويمكن القول عندئذٍ: "إنّ القيمة التّعبيرية هي مرتكز التحليل، فنحن نستمدها من المرجعيات، ونعلّل تحوّل تلك الجمل إلى ظاهرة- مادة أسلوبية عبر فاعلية الانزياح، ثمّ نبيّن تأثيرها في تعبيرها عن التّجربة والحالة وقدرتها على التوصيل إلى المتلقي"[3].

وينتمي التّركيب الاستفهاميّ إلى الأسلوب الإنشائيّ، أما الحديث عن أدواته ودلالاتها وأحكامها فينتمي إلى علم النحو، "فقد عَرَفَ النحويون نوعي الاستفهام عن مضمون الجملة أو نسبة المسند إلى المسند إليه، والإجابة عن ذلك نفيًا أو إثباتًا. وعمّا يسأل عن تعيين شيء والنسبة معلومة، والجواب حينئذٍ بتعيين ما يسأل عنه. إلا

(1) يُنظر: **السكاكي: مفتاح العلوم**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط1، 1937م، ص149. وتسأل (ما) عن أجناس الأشياء، و(مَن) عن جنس ذوي العلم، و(أي) عمّا يميّز أحد المتشاركين في أمر يعمهما، و(كم) للسؤال عن العدد، و(كيف) للحال، و(أين) للمكان، و(أنّى) تستعمل تارة بمعنى كيف، وأخرى بمعنى مِنْ أين، وأما (متى وأيان) فللسؤال عن الزمان. وتتولّد من هذه الأسماء الكثير من المعاني تُعرف بقرائن الأحوال، فتخرج (ما ومَن) مثلًا للاستخفاف والتحقير والتعجب، و(أي) للتعجب، و(كم) للاستبطاء والإنكار والتهديد، و(كيف) للإنكار والتعجب والتوبيخ، و(أين) للتوبيخ والتقريع والإنكار والتنبيه، و(أنى) للتعجب والتعجيب والإنكار والاستبعاد، و(متى) للجحد والإنكار والاستبطاء، أمّا (الهمزة) فأشهر معانيها التقرير والإنكار والتوبيخ، وغير ذلك من معانٍ يُجلّيها السياق. يُنظر: **السكاكي: مفتاح العلوم**، (مرجع سابق)، 149-152.

(2) **الداية**، فايز: **الأسلوبية الدلالية في الأدب العربي**، دار التكوين، دمشق، ط1، 2016م، ص62.

(3)**الداية**، فايز: **الأسلوبية الدلالية في الأدب العربي**، (مرجع سابق) ص21.

أنّ البلاغيين سمّوا ما يُسأل به عن النسبة تصديقًا، وما يسأل به عن المفرد تصورًا"[1]، فكان لا بدّ للبحث من الاطّلاع على علمَي النّحو والبلاغة؛ لأنهما متعاونان في بناء التركيب الاستفهاميّ، وعندما يستعمل الشاعر هذا التركيب أو غيره، فإنّه يريد أن يقدّم أسلوبًا لغويًّا "يتّصف بشحنة شعورية تقتضيها مناسبات الكلام فضلًا عما في تلك المعاني الجديدة من قوة تأثير"[2].

ثالثًا- ابن عُنين: حياته وشعره (549هـ-630م):

1- اسمه وأخباره: هو أبو المَحَاسن محمّد بن نَصْر بن الحُسين بن عُنَيْن الأنصاريّ، لُقّب بشرف الدّين، وهو كوفيّ الأصل دمشقيّ المولد. لغوي وأديب وشاعر مجيد، لم يقتصر شعره على أسلوب واحد بل تَفنّن فيه، وكان غزير المادة من الأدب مطلعًا على معظم أشعار العرب، أُولِع بالهجاء وثَلْب أعراض الناس، فنفاه السلطان صلاح الدين من دمشق فطاف في البلاد وعاد إلى دمشق في أواخر عمره. كان له مقام عند الملوك، وتولّى الوزارة بدمشق في آخر دولة الملك المعظم شرف الدين عيسى (615-624هـ)، ومدة ولاية الملك الناصر داود ابن المعظّم سنة (626هـ)، وانفصل عنها لما ملكها عمّه الملك الأشرف وأقام في بيته. عاش في القرنين السادس والسابع الهجريين (549هـ-630هـ)، ودفن بالمزّة في المسجد الذي أنشأه هناك[3].

2- شعره: أغراضه وسماته الفنيّة: امتاز شعر ابن عُنين بالجزالة والمتانة، فقد سار على نهج المتقدمين من الشعراء، وظهر في شعره الطابع الشخصيّ واللون المحليّ. ويُظهر شعرُه ثقافةً واضحة بعلوم العربية، فنجد مصطلحات النحو والصرف والفقه والحديث والمنطق والهندسة والحساب والفلك. وكان شعره متعدد الأغراض، ولعلّ من أهمّها: الحنين إلى دمشق، يليه الدعابة والتهكم والسخرية، فنراه فيه متوقّد الذهن،

(1) **جمعة**، عدنان عبد الكريم: **اللغة في الدرس البلاغي**، دار السياب للطباعة والنشر والتوزيع، لندن، ط1، 2008م، ص232.

(2) **جمعة**، عدنان عبد الكريم: **اللغة في الدرس البلاغي**، (مرجع سابق)، ص238.

(3) يُنظر: **ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1994م، 5/14-18. ويُنظر: **الحموي**، ياقوت: **معجم الأدباء= إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1414هـ- 1993م، 6/2661-2666.

دقيق الملاحظة، حسن التّصرف. بيد أنّه كان مولعًا بالهجاء شديد الإقذاع فيه، فلم يخلُ أحد من لسانه، فهجا نفسَه وأباه وملوكَ زمانه، ووزراءَهم، والأمراءَ والحكام والقضاة، ومع وقاحة هجائه وبذاءته نلمح فيه خيالًا واسعًا وابتكارًا في الصّور الفنيّة، وغاية ذلك التفرّد في الهجاء والتشنيع بالخصم. وكتب ابن عُنين أيضًا في المديح لكنه كرّر معانيه فيه كثيرًا، فقلّ فيه الابتكار، وأقلُّ شعره الرثاء، وفيه نبرة حزن صادقة. أمّا باب الوقائع والمحاضرات فضمّ أغراضًا متعددة من غزل ووصف وحكمة وفخر، وفيه تحدّث عن أخباره وأخبار معاصريه، وبذا يكون شعر ابن عُنين متنوعَ الأغراض كثيرَها[1].

رابعًا: الدلالات الشعرية للاستفهام عند ابن عُنين:

وردت أدوات الاستفهام كافّة في شعر ابن عُنين باستثناء: كم وأيّان وأنّى، ولذلك سيكتفي البحث بتعريف الأدوات الواردة في شعره، وذِكْرِ شواهدها مع تبيان المعاني التي خرجت إليها، لنُظهر ارتباط الأداة النحوية بعلم المعاني، الأمر الذي يساعد في تجلية المعنى الذي يرومه الشاعر وفقًا للحال التي ذُكر لأجلها.

1- الهمزة:

الهمزة هي أمّ باب أسلوب الاستفهام، وتستعمل -كما تقدّم- على وجهين: طلب التّصوّر أو التّعيين، وطلب التّصديق. وهما معنيان أصليان فيها.

أ- **طلب التصوّر أو التعيين:** هو السؤال عن المفرد لتعيينه. "نحو: أزيد في الدار أم عمرو؟ ولذلك انفردت بمعادلة (أمْ) المتصلة، لأنها يُطْلَب بها تعيين أحد الأمرين... وانفردت الهمزة أيضًا بأنها تدخل على المنفي، نحو: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[الزمر: 36][2]. وتخرج لمعانٍ بلاغيّة مجازيّة يجلّيها السّياق.

ومن ذلك قول ابن عنين في الحنين[3]:

(1) يُنظر: **ابن عُنين: ديوانه**، تحقيق: خليل مردم بك، دار صادر، بيروت، د.ت، ص24-33.

(2) **المرادي: الجنى الداني في حروف المعاني**، تحقيق: د فخر الدين قباوة -الأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1413هـ- 1992م، ص341-342.

(3) **ابن عُنين: ديوانه**، (مرجع سابق) ص72.

أ هاجك شوقٌ أمْ سَنَا بارقٍ نجدي يُضيءُ سَنَاه ما تُجِنُّ من الوجدِ

الشاعر في حيرة وتأزم نفسي، نلمحه إنسانًا معذَّبًا مضّيعًا في أصقاع الأرض، فلم يعد يدري ما سبب ذلك الهياج المفاجئ. وتظهر الأشياء هنا ذات فاعلية قوية؛ فاستطاع السنا أن يعرّيه ويجرّده عن تماسكه وقوّته، ووصل ضوْءُه إلى أعماق القلب. وكان من المُفترض أن تصل مواساة الناس أو عفو الحاكم أو القرار بالعودة إلى قلبه؛ فليس الكشف عن الكوامن بذي فائدة إذا ما ارتبط بما يلملمها ويسكن لهيبها. وقد أراد الشاعر طلب تعيين ما يهيج شوقه أهو الشوق أم رؤيته لسنا البارق النجدي؟ ومع طلب التعيين يريد من نفسه تعيين الإجابة، لأنّ الشاعر في حال اشتياق للبلد التي نُفي عنها.

ب- طلب التصديق: هو رفع اللبس عن حقيقة أو عمل يتردد المُستفهم في ثبوته أو نفيه. من مثل قولنا: أدرست؟ فتكون الإجابة بـ(نعم) أو (لا).

وقد تخرج لمعانٍ بلاغية مجازيّة كقول ابن عنين مادحًا الملك الأشرف موسى بن الملك العادل ذاكرًا أفضاله[1]:

أ أخاف من فقرٍ، وجودُ الأشرفِ السلطانِ في الآفاقِ قد ملأ الملا[2]

هنا يمدح الشاعر الملك الأشرف موسى بن الملك العادل ذاكرًا محاسنه وصفاته، فينفي متعجبًا خشية المرء الفقرَ مع أنَّ فضل الأشرف قد بلغ المدى كله، وعمّ الأرجاء، ففي هذا السياق خرجت الهمزة عن معناها الأصلي وهو طلب التصديق إلى معنى التعجب والاستنكار مع النفي، فالإجابة من الشاعر أنه لا يخاف الفقر، فكيف يخافه ووجود الأشرف ملأ الآفاق.

وخرجت الهمزة عن معناها الأصلي في قوله أيضًا[3]:

(1) موسى (الأشرف) بن محمد العادل ابن أبي بكر محمد بن أيوب، مظفر الدين، أبو الفتح (578-635هـ= 1182- 1237م): من ملوك الدولة الأيوبية بمصر والشام. **ابن خلكان: وفيات الأعيان**، (مرجع سابق)، 330/5، و**الزركلي**، خير الدين: **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط15، 2002م، 327/7.

(2) **ابن عُنين: ديوانه**، (مرجع سابق) ص11.

(3) **ابن عُنين: ديوانه**، (مرجع سابق) ص10-11.

ولـــربّ لائمـــةٍ علـــيّ حريصـــةٍ باتــتْ وقــد جمعــتْ علــيَّ العُــذَّلا

قالــتْ: أ مــا تخشــى الزّمــانَ وصــرفَهُ وتُقِــلُّ مــن إتــلافِ مالِــكَ؟ قلــتُ: لا

وهنا يظهر خروج الهمزة لمعنى التعجّب في موقف آخر؛ لأنه ارتبط بخوف اللائمة على الشاعر عندما كان يجازف في ماله، وارتبط كذلك بالأشرف موسى الذي كان وراء عدم الخوف. ولعل الحق أن السؤال هنا ليس كغيره من الأسئلة، فقد جاء مرتبطًا بإجابته (لا)، فالشّاعر لا يخاف، ويردّ على تلك اللائمة التي جمعت العذال بلومها حول الشاعر ولفتت الأنظار إليه، فظهر بوضوح معنى التصديق لأداة الاستفهام الهمزة مقرونًا بمعنى آخر هو التعجب، فالمحبوبة تتعجّب من هذا الإتلاف للمال، إلا أنّ الشاعر يقرّ أمامها بأنه لا يخشى ذلك؛ فهو مصرٌّ على هذا الإتلاف لأنه في سبيل مَن يُحبّ.

2- هل:

حرف استفهام "يدخل على الأسماء والأفعال، لطلب التصديق الموجب... فتساوي الهمزة في ذلك"[1]. وتُفارق الهمزةَ بأنها لا تأتي للتعيين ولا تدخل على منفي[2]. وتتلبّس بمعانٍ متعددة يضفيها عليها السياق، ومن مجيئها في شعر ابن عنين قوله يحنّ إلى دمشق ويتشوّق لها وهو في اليمن[3]:

ألا ليــتَ شــعرِي هــل أبيــتنَّ ليلــةً وظِلُّــكِ يــا مَقْــرى علــيَّ ظليــلُ

يقول: هل سأستطيع المبيت تلك الليلة تحت ظلال أشجارك يا قرية (مَقْرَى)[4]، ويبدو الشاعر في حاجة إلى تذكر الأماكن وصفاتها وأشجارها في رغبة جامحة لبيان أنه لم ينسَ تلك التفاصيل المهمة له في كل مكان، فهو يرتبط بدمشق ونواحيها، وهو ذلك العاشق المخلص في حبه وحنينه لوطنه.

---

(1) **المرادي: الجنى الداني في حروف المعاني**، (مرجع سابق) ص341.

(2) **المرادي: الجنى الداني في حروف المعاني**، (مرجع سابق) ص341-342.

(3) **ابن عُنين: ديوانه**، (مرجع سابق) ص69.

(4) مَقْرَى: "بالفتح ثم السكون، وراء، وألف مقصورة تكتب ياء لمجيئها رابعة: قرية بالشام من نواحي دمشق". **الحموي**، ياقوت: **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ط2، 1995م، 5/173-174.

وقد أفادت (هل) هنا التمني، فالشاعر يتمنّى النّوم في ظلّ خيال أشجار قرى الشام في مخيلته. ويكمل قوله فيقول في البيت التالي[1]:

وهـل أرَيَنّـي بعـدما شـطّت النّـوى ولـي فـي رُبَـى روضٍ هنـاك مَقيـلُ

فيتساءل بينه وبين نفسه ويتحدّث معها، فهي خير أنيس في النوى والفراق مستعملًا الأداة (هل)، فهل سيكون له ذات يوم قيلولة في تلك الربى والرياض؟ فهو استفهام خرج للتّمني، لأنه منفي عن وطنه ويتمنّى العودة إليه والنوم في رياضه.

2- ما/ ماذا[2]:

كان الهمّ الأوّل والشاغل الأكبر للشاعر هو بيان سوء حاله واستعطاف الملك العادل[3] وتليين قلبه تجاهه، وقد حمّله بعص العتب الرقيق الناتج من المحبة الصافية؛ فالشاعر لا يحمل في قلبه ضغينة بل يتألم لحال طالت به وهو مُبعَد عن دياره مشردٌ في أراضٍ غريبة يلقى سوء معاملة، فتتراءى لنا صورة الملك العادل يسمع صوت الوشاة والكائدين معرضًا عن حقيقة أن الشاعر لم يرتكب ذنبًا، يقول ابن عُنين[4]:

مـاذا علـى طيـفِ الأحبـةِ لـو سـرى وعلـيهمُ لـو سـامحوني بـالكرى

جنحـوا إلـى قـولِ الوُشـاة فأعرضـوا واللهُ يعلـمُ أنَّ ذلـكَ مُفتـرى

فيبدأ القصيدة مستفهمًا محاولًا انتزاع عطف الملك أمام الملأ، وقد تجمع الأحبة والوشاة في صف واحدٍ، فعندما ألقى الواشي وشايته صدّقها الحبيب وأعرض عن الشاعر، فحاول الشاعر التخفيف عن نفسه بإلقاء السؤال مباشرة بين يدي الملك

(1) **ابن عُنين: ديوانه**، (مرجع سابق) ص69.

(2) ما الاستفهامية تكون بمعنى أي شيء؟ ويُحذف اسمها إذا دخل عليها حرف جر، أما ماذا فهي مؤلفة من ما الاستفهامية وذا على أوجه: إما اسم إشارة وإما موصولية، وقد تكون (ماذا) كلها استفهامًا على التركيب. يُنظر: **ابن هشام: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، تحقيق: د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر – دمشق، ط6، 1985م، ص393–396.

(3) هو محمد بن أيوب بن شادي، أبو بكر سيف الإسلام، الملقب بالملك العادل، أخو السلطان صلاح الدين (540– 615هـ= 1145– 1218م): من كبار سلاطين الدولة الأيوبية. يُنظر: **ابن خلكان: وفيات الأعيان**، (مرجع سابق) 74/5، ويُنظر: **الزركلي**، خير الدين: **الأعلام**، (مرجع سابق) 47/6.

(4) **ابن عُنين: ديوانه**، (مرجع سابق) ص3.

مقررًا إيّاه عن الضرر الذي سيحصل في حال عفا قلبه عن الشاعر سائقًا معه حججه وبراهينه ومسوّغاته التي تبين حسن نيته وموقفه. وقد أفادت الأداة (ماذا) هنا معنى الاستعطاف مع التمني، فهو يستعطف مرور طيف الحبيب به ليستطيع النوم.

وقال في موضع آخر يعاتب المحبوبة لمياء متفجعًا بسبب غيابها، ويوجه السؤال إلى خليليه في محاولة منه لربطهما بالقصة وبغيابها، فلم يبقَ له سوى الصديق ليسأله ويحاوره فربما يخفّف هذا الحوار عبْء الغياب[1]:

خليلـــي مـــا لـــي بـــالجزيرةِ لا أرى للميـــاءَ طيفًـــا يزدهينـــي عتابُـــهُ؟

افتتح الشاعر نصّه بالأمنيات وحمّلها لأهله في دمشق، ولا بدّ في موقف كهذا من وجود المرأة؛ لأنها تربط الرجل ببيئته الأصلية، فالمرأة هي الوطن الثاني، ومع أن المصادر لم تذكر وجود امرأة في حياة ابن عنين أراد أن يصف شوقه وعذابه فجاء بحبيبة وهمية على عادة القدماء ليعزّز موقفه ويقوّي سياق النص في مجمل حديثه عن كل ما يتعلّق بالحنين والوطن وكلّ هذه العناصر التي تشكّل مصدرًا قويًا للحنين وملهمًا للشاعر لا ينقصها سوى حواء. وقد تلبّست الأداة (ما) بمعنى التوجع والتحسّر؛ فالشاعر يتألّم متحسّرًا ومستغربًا لعدم رؤية حبيب يزدهيه عتابه في الجزيرة فيزداد ألمًا على ألم البعاد.

3- مَن:

ظهر الاستفهام من خلال الأداة (مَن) في شعر ابن عُنين في قصيدة فائية، وقد امتزج هذا الاستفهام بدلالة أخرى هي دلالة التعجب والتعظيم، فالحكاية بدأت في خُوَارِزم عندما كان الشاعر يحضر درسًا للفخر الرازي[2] وهو أحد الأشخاص الذين يخصهم الشاعر بمحبة زائدة، وإذ بحمامة تهبط مسرعة في حِجْرِ الفخر الرازي وهي

(1) **ابن عُنين: ديوانه**، (مرجع سابق) ص19.

(2) فخر الدين الرازي هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازيّ (544- 606هـ= 1150- 1210م): الإمام المفسر. أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل. **ابن خلكان: وفيات الأعيان**، (مرجع سابق) 4/248-249، ويُنظر: **الزركلي**، خير الدين: **الأعلام**، (مرجع سابق) 6/313.

مذعورة، تلهث هاربة من صقر مفترس يلاحقها في الفضاء، فما وجدت أمنًا أكثر ممن دلّها إحساسها عليه، لذلك جاء الاستفهام باستعمال الأداة (مَن) للعاقل وللتعظيم المرتبط بالدّهشة والتعجّب من تصرف الورقاء، وقد حاول الكاتب إبراز تعظيمه للفخر الرازي باستغلال هذا الموقف، فقال[1]:

يـا بـنَ الكـرامِ المطعمـينَ إذا شـتوا فـي كـلِّ مخمصـةٍ وثلـجٍ خاشـفِ

العاصـمينَ إذا النُّفـوسُ تطـايرتْ بـينَ الصَّـوارمِ والوشـيجِ الرَّاعـفِ

مَـن نبَّـأ الورقـاءَ أنَّ محلَّكـم حـرمٌ وأنّـكَ ملجـأٌ للخـائفِ

وفـدتْ عليـكَ وقـد تـدانى حتفُهـا فحَيَوْتَهـا ببقائِهـا المسـتأنفِ

ولعلّ الواقع أنّ الورقاء بحسب ما أراد الشاعر قد لجأت إلى حجر الفخر الرازي بسبب هالته وعظمته، فاتجهت إلى أكثر الأماكن أمنًا، ويبقى التعجب قائمًا عمّن أخبرها بأنّ ذلك الشخص هو ملجأ الخائفين؟

وقال يهجو شخصًا اسمه سليمان[2]:

فلما رآني قالَ: مَنْ؟ قيلَ: شاعرٌ أَتى مادحًا فازورَّ للسّخطِ جانبُهْ

نلحظ الأداة (مَن) وهي هنا استفهامية للعاقل، وقد حملت معنى التهكّم، وظهر أيضًا معنى التّجاهل والتصغير من حذف المبتدأ، فالتقدير: مَنْ أنتَ؟ فابن عنين يقول: إنّ سليمان هذا خاف منه لأنه شاعر عُرف ولعه الهجاء، فأخبره أنه جاء

(1) **ابن عُنين: ديوانه،** (مرجع سابق) ص95. و**المخمصة:** مسغبة. و**الخاشف:** تُسْمَعُ لَهُ خَشْفَة عِنْدَ الْمَشْيِ وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ. و**الوشيج:** ضَرْبٌ مِنَ النَّبَاتِ. والمقصود بالوشيج الراعف: الرماح النازفة. **وحَيَوْتَها:** يقصد حييتها. فـ"حيا: الحَيَاةُ: نَقِيضُ الْمَوْتِ، كُتِبَتْ فِي الْمُصْحَفِ بِالْوَاوِ لِيُعْلَمَ أَن الْوَاوَ بَعْدَ الْيَاءِ فِي حَدِّ الْجَمْعِ، وَقِيلَ: عَلَى تَفْخِيمِ الأَلف، وَحَكَى ابْنُ جِنِّي عَنْ قُطْرُب: أَن أَهل الْيَمَنِ يَقُولُونَ الحَيَوْةُ، بِوَاوٍ قَبْلَهَا فَتْحَةٌ، فَهَذِهِ الْوَاوُ بَدَلٌ مِنَ أَلف حياةٍ وَلَيْسَتْ بِلَامِ الْفِعْلِ مِنْ حَيِوْتُ، أَلا تَرَى أَن لَامَ الْفِعْلِ يَاءٌ؟ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ أَهل الْيَمَنِ بِكُلِّ أَلف مُنْقَلِبَةٍ عَنْ وَاوٍ كَالصَّلْوَةِ وَالزَّكْوَةِ. حَيِيَ حَياةً. وحَيَّ يَحْيَا ويَحَيُّ فَهُوَ حَيٌّ، وَلِلْجَمِيعِ حَيُّوا، بِالتَّشْدِيدِ، قَالَ: ولغة أُخرى حَيَّ وَلِلْجَمِيعِ حَيُوا، خَفِيفَةٌ". **ابن منظور: لسان العرب،** (مرجع سابق) 211/14، مادة (حيا).

(2) **ابن عُنين: ديوانه،** (مرجع سابق) ص233. ولم يُذكر في الديوان من هو سليمان هذا الذي يتحدث عنه ابن عُنين.

ليمدحه، ومع ذلك كان سليمان شديد الخوف منه، فقد علم أنّ ابن عُنين كان يتهكم به ولم يأتِ لمديحه بل جاء لهجائه كما توضّح أبيات القصيدة، من مثل قوله[1]:

وألححتُ حتّى صرّح الشّعرُ قائلًا: أرحني فما ترجو بمَيْتٍ تُخاطبُه

وقد يُظنّ للوهلة الأولى أنّ الأداة (مَن) هنا على بابها وهو للعاقل وطلب التعيين، ولكنها تلبّست بالتحقير؛ لأنّ سليمان رأى الشاعر وتغافل عن معرفته، فسأل سؤال المتجاهل المُقلل لشأنه، بدليل أنّ الشاعر تنبّه لهذا التجاهل فقال: (قيل شاعر)، علمًا بأنّه هو الذي قال له: أنا شاعر، فبنى الفعل (قال) للمجهول، تقليدًا لحال سليمان المتجاهل أيضًا، وإعلامًا له بأنّه كشف تجاهله.

4- أيّ:

في سياق حديث الشاعر عن الرياض بعد امتداحه للملك المعظّم عيسى بن الملك العادل[2] جاء التعظيم واضحًا وله دلالة خفية في نفسه فقال[3]:

في روضةٍ نسجتْ وشائعَ بُرْدِها كفُّ السحابِ وأيُّ كفٍّ صَناعِ؟

فهو بعد حديثه في هذه القصيدة عن الحمى وأهلها وتذكّره للمنازل بين البقاع وراهط، وذكره الخمر التي شربها في تلك المنازل، يمهد رويدًا رويدًا ليبدأ بامتداح الملك وصفاته، وكل هذه الصفات الحسنة لذلك الملك كانت في ظل تلك الروضة الجميلة التي يبدو أنها أخذت جمالها من جمال الملك، وجاء الاستفهام بالأداة (أي) التي تكتسب دلالتها مما تُضَاف إليه، وقد أضيفت هنا إلى (كفّ)، فهو لا يتعجب فقط من جمال الروضة بل يتعجب من قدرة الكف التي صنعتها. فأفادت الأداة تعظيم تلك الكفّ من كلّ الجهات.

ونراه يلجأ إلى الاستفهام التعظيمي في موقف يقدر به أفضال نجيب الدين

(1) **ابن عُنين: ديوانه**، (مرجع سابق) ص233.

(2) الملك المعظم عيسى بن محمد (الملك العادل) أبو بكر بن أيوب، شرف الدين الأيوبي (576- 624هـ= 1180- 1227م): سلطان الشام. من علماء الملوك. توفي بدمشق ودفن بمدرسته المعظمية في الصالحية. **ابن خلكان: وفيات الأعيان**، (مرجع سابق) 494/3، و**الزركلي**، خير الدين: **الأعلام**، (مرجع سابق) 107/5-108.

(3) **ابن عُنين: ديوانه**، (مرجع سابق) ص23.

ابن يمن العرضي[1]، وهو الذي لم يعترف بالفضل إلا لقلة قليلة، وعاش حياته معتقدًا أنه ظُلم من الكثير من الناس ولا سيّما بإبعاده عن بلاده فيقول[2]:

ولطالما شِمْتُ السّحابَ وكفَّهُ فتدافقا فجهلتُ أيُّهما السَّما

جاء الاستفهام في هذا البيت وهو البيت الأخير من النص بالأداة (أيّ) بعد أن لوّن الشاعر في أساليبه ثم وضع الاستفهام ليثبت عظمة فضل ذلك النجيب ويترك للقارئ مجالًا للتخيّل في عظمة ذلك الفضل؛ لأنه اعتمد على الاستفهام في المقارنة، ما جعل التّعظيم في أوجه، فمقارنة أفضال النجيب بأفضال السماء تدّل على عظمة عطائه وفضله. فأفاد الاستفهام بـ(أي) ههنا معنى الاستعظام مقرونًا بالتعجب، ما يُعلي من شأن المدح، موظِّفًا الاستفهام في جمال التصوير ونقل المعنى الذي مدح به ممدوحه.

5- كيف:

ويأتي الاستفهام التعظيمي المرافق للتّعجب والاستحسان لجمال الحبيب في موقف الحنين والتذكّر، يختتم به الشاعر النص، ويحمّله أمنياته، ويطلقه بين يدي حبيبه لعله يسمع أو يتأثر، فيقول[3]:

ولا فرحــةُ الإثــراءِ مــن بعــدِ فاقــةٍ على قلبِ مَنْ نالَ منَ الدّهرِ مَغْنَما

بأحسـنَ وجهًـا مـن حبيبـي مقطّبًـا فكيـــفَ إذا عاينتَـــهُ مُتبسِّـــما

هذا السياق متعدد الثنائيات على مبدأ التضاد (الإثراء- الفاقة)، (مقطبًا- متبسمًا)، وبذلك نجد شبكة من العلاقات بين الكلمات في محاولةٍ للتعبير عن عظمة الحبيب الذي يبدو وجهه في العبوس جميلًا، وليس كحسنه شيء، ولا كعظمته شيء، فكيف به وهو مبتسمٌ؟ واستعمل الشاعر لربط هذه الشبكة اسم الاستفهام (كيف) الذي يعبر عن الحال، فحال العبوس ليست كحال التبسم، بيد أنَّها جميلة أيضًا وللقارئ أن يتخيل ذلك. ولا يخفى معنى التعجب الذي أفادته الأداة (كيف) لتعجّب الشاعر من

(1) لم نجد ترجمته، وكذلك لم يجد محقق الديوان ترجمته.

(2) **ابن غُنين: ديوانه**، (مرجع سابق) ص79.

(3) **ابن غُنين: ديوانه**، (مرجع سابق) ص82.

تلك الحال التي بدا عليها الممدوح. وفي موضع آخر يقرر الشاعر حقيقةً مهمةً يحتاجها من يعاني وحدته بنفسه حقيقة المرض الصعب بعيدًا عن الديار، فيناشد من يزوره ويطمئن عليه في حال ضعف ووحدة ومرض، فيكتب للصلاح الإربلي[1] خادم الملك الذي عُرف بأمانته وفضله فغدت منزلته كبيرة عند الملك، يناشده الشاعر لزيارته، فرؤية وجه الصلاح ربما تجعله يتحسن ويقوى على مرضه، يقول[2]:

وكيفَ يُفيقُ مِن عَنَتِ الليالي مريضٌ لا يَرى وجهَ الصّلاحِ

فمن المؤكّد أنه لا يفيق ذلك المتعب ليلًا الذي لم يشرق عليه الصباح المملوء بوجه الصلاح، وقد جاء باسمه معرفًا بـ(أل) لأهميته، وكأنه بهذا التعريف امتلكه وصار له، وصار من حق الشاعر لومه ومعاتبته. وقد أفادت (كيف) ههنا معنى الاستبعاد والنفي، فلا يمكن لمريض أن يصحو إن لم يرَ وجه الصلاح. وفي سياق آخر يخاطب فيه الملك الأشرف موسى بن الملك العادل، جاء الاستفهام بهذه الدلالة نفسها، بيد أنه لاستعطاف الأشرف بعد أن خالطت دموع الشاعر دمه من شدة الشوق، ويتساءل باستعمال الأداة (كيف) عن طريقة للصبر، فيقول[3]:

يــا راحــلًا والقلــبُ بــين رِحالــه يقتــادهُ حفظًــا لعهــدِ مضــيّعِ

هــلَّا وقفــتَ علــى مُحِبّــك حافظًــا عهــدَ الهــوى فيــه وقــوفَ مــودّعِ

كيــف السـبيلُ إلــى السُّلوّ ولـم تُعِـدْ عقلــي علــيَّ ولـم تـدعْ قلبـي معـي؟

فلأصــبرنّ علــى الزمــان وجــورِه صــبرَ امــرئٍ متجمّــلٍ لــم يَخضَــعِ

(1) هو صلاح الدين الإربلي، أبو العباس، أحمد بن عبد السيد، وهو من بيت كبير بإربل؛ وكان حاجبًا عن الملك المعظم مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل، فتغير عليه واعتقله مدة، فلما أفرج عنه خرج منها قاصدًا بلاد الشام في سنة 306هـ، ثم انتقل إلى الديار المصرية، وخدم الملك الكامل، فعظمت منزلته عنده، واختص به في خلواته وجعله أميرًا. **ابن خلكان: وفيات الأعيان**، (مرجع سابق)، 184/1. و: **الزركلي**، خير الدين: **الأعلام**، (مرجع سابق) 150/1.

(2) **ابن عُنين: ديوانه**، (مرجع سابق) ص120.

(3) **ابن عُنين: ديوانه**، (مرجع سابق) ص12–13.

ولأشــكرنَّ حوادثًــا[1] قــذفتْ بــآ مــالي إلــى الملــكِ الهمــامِ الأروعِ

والتعجب هنا يوضح حقيقة صعوبة الأمر في حال غياب العقل والقلب معًا، فلا عقل للشاعر، بل هو مشغول بالتفكير، ولا القلب يلبيه، فهو مشغول بالأحزان. فقد سبق هذه الأبيات بيتٌ فيه عتاب الشاعر للأشرف بمعاقبته بجناية لم يرتكبها، ثم تلاه حديث الشاعر عن الأشرف وصفاته ونعمه على الناس والدنيا؛ يقول فيها[2]:

عــاقبتني بجنايــةٍ لــم أجنْهــا ظلمًــا، وكـمْ مـنْ حاصـدٍ لـم يـزرعِ؟

ومنعـتَ طيفـكَ مـنْ زيـارةِ عاشـقٍ حاوَلْــتَ مُهْجَتَــهُ فلــمْ يتمنّــعِ

وبعد أن بيّن الشاعر حاله المتعبة في البعد جاءته نصيحة الصبر في غير مكانها، فليست هي الحل المنشود لو كان الصبر يعيد الأماني، وهذا ما دفع الشاعر إلى التعجب وإنكار تحقق النسيان واستبعاد ذلك التحقق.

6- أين:

ربط الشاعر الاستفهام بـ(أين) للدلالة على المكان مع معنًى آخر يجلّيه السياق، فخلال رحلته بعيدًا عن الوطن كان له رفقة من فتية أعانوه في سفره ورحلته، ولكنهم ضلوا الطريق، وضاع عنهم الهدف، يقول في ذلك[3]:

قالوا وقد خاط النعاسُ جفونَهم: أين المناخُ؟ فقلت: جِدُّوا في السُّرى

فهنا يتساءل الشاعر معبّرًا عن استبطاء المسير وبُعد المسافة فتطاول الزمن في السفر، فلم يحتمل المسافرون طول الطريق ومشقته، وراح الشاعر يحثهم على السير والاحتمال والصبر عندما فقدوه، وبدؤوا يتساءلون عن مكان الراحة والنزول.

وفي نص آخر يتشوّق فيه إلى دمشق وإلى قائد شرطتها، نجده ينكر على العيون النوم مع القرب منها، لكن هذا النوم محال وصعب، يقول[4]:

(1) اضطر الشاعر لصرف الممنوع من الصرف لاستقامة الوزن.

(2) **ابن عُنين: ديوانه**، (مرجع سابق) ص12

(3) **ابن عُنين: ديوانه**، (مرجع سابق) ص5.

(4) **ابن عُنين: ديوانه**، (مرجع سابق) ص78.

يُـذكرُني البـرقُ الشـآميُّ إنْ خَفـا زمـاني بكـمْ يـا حبـذا ذلـكَ الـزمنْ

ويـا حبـذا الهضـبُ الـذيْ دونَ عزّتـا إذا مـا بـدا والـثلجُ قـد عمَّـمَ القـنـنْ

أأحبابَنـــا لا أســـألُ الطيـــفَ زَورةً وهيهـاتَ أَيـنَ الـدّيلمياتُ مـن عَـدَنْ؟

وهـبْكم سـمحْتم، والظّنـونُ كـواذبٌ، بطـيفكمُ أيـنَ الجفـونُ مـن الوسـنْ؟

جاء الشاعر بالأداة (أين) الدالة على المكان في محاولة منه للدلالة على البعد والفارق المكاني الكبير بين الديلميّات (من ضواحي دمشق)، وعَدَن (أشهر سواحل اليمن)، وبين جفونه والنوم الذي فارقه في ظل ما يعانيه من ابتعاد وحرمان من لقاء الأحبة، فهو في اليمن وقائد الشّرطَة في دمشق، فجفون الشاعر جفاها النوم، وقد تأخر عنه طيف المحبوب، وهذا التأخر مقبول لبعد المسافة بين الشاعر وممدوحه، ولو أنّ قائد الشّرطَة سمح بزيارة طيفه –وهو ظنّ كاذب من الشاعر؛ لانشغال قائد الشرطة بمهامه في دمشق– لَمَا استطاع الشاعر النوم أيضًا؛ لأنّ الطيف سيزيده حنينًا واشتياقًا، لذلك أفادت الأداة (أين) معنى التعجب من الفارق المكاني البعيد بين دمشق واليمن، وبين المقدرة على النوم بوجود طيف الأحبة وعدمها.

وعندما يتذكّر الشاعر الحِمَى وأيامه فيها يفيض القلب شوقًا وتعجز الأرجل عن الحراك نحو المسبب للشوق، ويشعر الشاعر ببعده الحقيقي عن الوطن، فيعبّر عن ذلك باستعمال الأداة أين للدلالة على معنى التحسّر والتألّم والاستبعاد والتشوّق، يقول[1]:

أينَ الحِمى منّي؟ سقَى اللهُ الحِمى ريًّا وكانَ له الحفيظَ الرّاعي

الشاعر لا يملك في البعد إلا الدعاء، فيطلب من الله السقيا للديار، ثم يتمنى أن يكون حفيظًا لها وراعيًا لشؤونها. والغريب في دلالة هذا البيت أننا نجد الشاعر فيه يطلب من الله الحماية والرعاية، ولكنه لا يطلب من الله أن يخفف البعد ويزيح الغمة

(1) **ابن عُنين: ديوانه**، (مرجع سابق) ص22.

وينهي المسألة.

7- متى:

جاء معنى الاستبطاء مع التمني بالأداة (متى) في سياق مخاطبة الشاعر خليله عارضًا حياته البائسة والمتعبة، قال[1]:

متى أنا في ركبٍ يؤمُّ بنا الحمى خِفافٌ ثِقالٌ بالأماني ظهورُها

وفي سياق عتابه للملك، ذاكرًا أن سبب شقائه وألمه هو تجاهله لمشكلة الشاعر، فقال[2]:

فإلى متى أنا بالسِّفار أُضيَّعُ أيامَ بينَ الشدِّ والإيضاع؟

وفي كلا الموضعين يتوجه الشاعر إلى الملك في محاولة منه مرة بعد مرة إلى انتزاع عفو يمكنه من الرجوع إلى وطنه. ففي الموضع الأول كان الشّاعر يتساءل متمنيًا العودة إلى أرض الوطن بخفة لا يحمل معه لا وجعًا ولا ألمًا، بل يكتفي بحمل الأماني التي أصبحت ثقيلة لتراكمها، ولكنه ثِقَلٌ لذيذٌ على النفس، وقد جاء الشاعر بالاستفهام بعد سياقات متعدِّدة ومباشرةٍ استعرض بها حياته وشارك بها خليليه اللَّذين اشتركا معه بالرحلة، فعلى عادة الأجداد لا بدّ من وجود خليل افتراضي يحمل عن الشاعر قليلًا من همومه، معَ أن ابن عنين كان وحيدًا. وجاءت (متى) في أول البيت الشعري حاملة إظهار طول المدة الزمنية بشكل خفي محاولة الخروج بموعد نهائي وقريب، موعد يحلم به الشاعر، ولا يهم رفقة الطريق آنذاك، فهذا الركب نكرة ليس بركب الصحبة أو الأقرباء، بل هو ركب غايته الأساسية قيادة الشاعر لموطنه مع أمانيه الثقيلة.

وقد سُبقت (متى) في البيت الثاني بحرف الجر (إلى) للتنبيه على طول المدة التي قضاها الشاعر في غربته، وتلاها ضمير الرفع المنفصل المعبّر عن الشاعر نفسه، هذا الضمير الذي برز أوّل مرّة فلم يكن ابن عنين قد اعتاد التحدث عن نفسه إلا من وراء ستار آلامه وأحزانه واشتياقه لوطنه. ووجود الضمير بعد الاستفهام مباشرة

(1) **ابن عُنين: ديوانه**، (مرجع سابق) ص17.

(2) **ابن عُنين: ديوانه**، (مرجع سابق) ص26.

ينبئ بحاجة ملحّة يريدها الشاعر[1]، هي (الشك بالفاعل فهل يقوم ابن عنين بتضييع وقته سفرًا؟)، فالتضييع والأيام العبثية وهذا الزمان المائج الذي لا هدف منه ولا غاية، وتلك الأيام الجارية بين الشدّ وإيضاعها كيفما هبت بها رياح الحياة، هذا الجو المشحون بالكآبة والضياع آنَ له أن ينتهي؛ لأن قدرة الشاعر على التحمل بدأت بالنفاد، ومع أنه لم يبدأ مستفهمًا، وكانت الحال تساعده على ذلك نجده عمد إلى حيلة ذكية جدًا، عندما قدم وصف الرياض والتغني بجمالها ومحاسنها عامدًا إلى ذاكرته التي تحتفظ بأبهى الصور عنها مستعينًا بخليليه لإمداده بالدموع، فقد فنيت وبليت دموعه لكثرة ذرفها، وكأنه يقول: قرر مصيري أيها الملك حتى تبقى ذكراك كتلك الرياض خالدةً لا يمحوها طول الزمان، وأخرجني من هذا الضياع الذي ما عدتُ أحتمله. وحاول الشاعر هنا سد كل الأبواب في وجه الملك ليفتح له بابًا واحدًا ويوجّهه نحوه، وهو باب عفوه، فلا الذكريات تنفع ولا مدامع الصديقين تعين؛ لأنهما بعد أن تعاهدا على الإعانة فقدا الرشد إليها، فباتت الإعانة الوحيدة بيد الملك.

وفي سياق آخر يستعمل الشاعر أدوات الاستفهام بكثافة في هجائه للصفي[2] ويتهمه بحب الخدم قائلًا[3]:

أبلــغْ رســالتيَ الصَّــفيَّ وقــلْ لــهُ كيــف اســتحالَ صــفاؤُهُ وتكــدّرا؟

كيــف اشــتغلتَ بخــادمٍ عــن خــادمٍ مــا جرَّ جُرمًا فــي هواكَ ولا افترى؟

ومتــى الخــلاصُ وقــد وردتَ مــواردًا هيهــاتَ عــن بُحرانِهــا أنْ تَصــدرا؟

تكررت الأداة (كيف) مرتين توبيخًا في الأولى وتعجبًا وتهكمًا في الثانية، ثم

(1) يُنظر: **الجرجاني**، عبد القاهر: **دلائل الإعجاز**، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، د.ت، ص 111.

(2) الصّفي نصر الله بن الْقَابِض، خدمَ السُّلْطَان صَلَاح الدّين لمّا كَانَ فِي شِحنكيَّة بَغْدَاد، وأمدّه بِالْمَالِ، فلمّا ملك استوزره وَكَانَ شجاعًا ثِقَة أَمينًا كثير الْمَعْرُوف، وَكتب أملاكه لمماليكه لِأَنَّهُ لم يكن لَهُ وَلَدٌ، وَبنى بالعُقَيبة مَسْجِدًا وَدفن بِهِ ويُعرف الْآن بِمَسْجِد الصّفي وَتُوفِّي سنة 587هـ. **الصفدي**، صلاح الدين: **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث– بيروت، 1420هـ– 2000م، 6/27.

(3) **ابن عُنين: ديوانه**، (مرجع سابق) ص206.

قفل الشاعر مقطعه بالأداة (متى) ليبين استطالة المدة التي يعاني منها مع صَفِيّ الدين؛ إذ الخلاص غير معلوم الأجل، فهو لا يسأل عن وقت محدد، بل يصّرح متهكمًا أن الخلاص صعب وعسير ولا نهاية محددة له. ثم يتهكم بأحوال صفي الدين وبتنقله في محبته للخدم من خادمٍ إلى خادمٍ، ويعاتبه ساخرًا ومجرحًا إياه لتركه الخادم، فهو لم يقترف ذنبًا، وليبين أن الصفي شخص سيئ الطباع. وارتبطت دلالة التعجب والاستغراب هنا بدلالة الاستبطاء والاستبعاد في مشكلته للرجوع إلى دمشق، فذِكرُ (هيهات) يعطي معنى استبعاد تحقق هذا الطلب. وقد عزز البعد وجود الأداة (متى) التي عبرت عن طول المدة الزمنية للوصول إلى تلك اللحظة التي سيأتي بها إلى دمشق محملًا بالأماني الثقيلة في كميتها وعمقها والخفيفة بثقلها وسهولة حملها. وحرف الجر (إلى) الذي سبق الأداة (متى) يحمل دلالة زمنية ومدة طويلة مرتبطًا بالأداة التي من شأنها التعبير عن طول المدة والبعد والبطء في تحرك الأمور وتقدمها للأفضل ولانتهاء معاناته.

خامسًا: الخاتمة

بَعْدَ مَا تقدَّمَ مِنْ حديثٍ عَن سياقات استعمال الاستفهام في شعر ابن عنين، نَستخلصُ أهمَّ النَّتائِجِ الَّتي خرج بها البحثُ، وهِيَ:

1- استطاع التركيب الاستفهامي نقل مقاصد الشاعر من خلال الأدوات التي وظّفها في سياقات متعدّة اقتضاها المقام الخارجي والدّاخلي.

2- وردت معظم أدوات الاستفهام في شعر ابن عنين، باستثناء ثلاث أدوات، هي: كم، وأيان، وأنّى. ولعل السبب في ذلك ندرة ورود هذه الأدوات في الشعر خاصّة، ولاسيما (كم) التي غالبًا ما تكون في الشعر للخبر والتكثير.

3- أفادت أدوات الاستفهام معانيَ اقتضاها السياق، فكانت (الهمزة) للتقرير والنفي والتعجب، و(هل) للتمني، و(ما) للتوجّع، و(ماذا) للاستعطاف، و(مَن وأي) للاستعظام والتعجب، و(كيف) للتعجب والإنكار والاستعطاف، و(أين) للاستبعاد، و(متى) للتمني والاستبطاء. وقد ظهر غلبة معنى التعجب والاستغراب والإنكار والتمني على الأدوات، فأعان هذا الظهور في نقل الحالة الشعورية التي كان عليها الشاعر من حنين إلى

دمشق التي طال بعده عنها، ما يدل أيضًا على صلة التركيب الاستفهامي بالغرض الشعري من مدح أو هجاء أو حنين وشوق وغير ذلك.

4- قد تحمل الأداة الواحدة أكثر من معنى يطلبه السياق كما رأينا في بعض الأدوات من مثل: أي، وكيف، وأين.

5- وظّف الشّاعر التركيب الاستفهامي في الصّورة الفنّيّة، ممّا ساعد على نقل الدلالات التي أفادتها الأدوات بلَبوس بلاغي ذي وجهين: خارجي إنشائي (استفهام)، وداخلي خبري (النفي، والتعجب، والتفجع، والاستبطاء).

المَصَادِرُ والمَرَاجِعُ

1- **التهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج. نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي. الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون- بيروت، ط1، 1996م.

2- **الجرجاني**، الشريف علي: **التعريفات**، حققه وقدّم له ووضع فهارسه: إبراهيم الأبياري، دار الريان للتراث، مصر، 1403هـ (تاريخ المقدمة).

3- **الجرجاني**، عبد القاهر: **دلائل الإعجاز**، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط5، د.ت.

4- **جمعة**، عدنان عبد الكريم: **اللغة في الدرس البلاغي**، دار السياب للطباعة والنشر والتوزيع، لندن، ط1، 2008م.

5- **الحموي**، ياقوت: **معجم الأدباء= إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1414هـ- 1993م.

6- **الحموي**، ياقوت: **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ط2، 1995م.

7- ابن **خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1994م.

8- **الداية**، فايز: **الأسلوبية الدلالية في الأدب العربي**، دار التكوين، دمشق، ط1، 2016م.

9- **الراجحي**، عبده: **التطبيق النحوي**، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 1420هـ- 1999م.

10- **الزركلي**، خير الدين: **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط15، 2002م.

11- **السكاكي**: **مفتاح العلوم**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط1، 1937م.

12- **الصفدي**، صلاح الدين: **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث- بيروت، 1420هـ- 2000م.

13- **عبد العزيز**، محمد حسن: **علم اللغة الحديث**، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2011م.

14- **عمر**، أحمد مختار، وآخرون: **معجم اللغة العربية المعاصرة**، عالم الكتب، ط1، 1429 هـ- 2008م.

15- **ابن غُنين**: **ديوانه**، تحقيق: خليل مردم بك، دار صادر، بيروت، ط2، د.ت.

16- **قدور**، أحمد محمد: **مبادئ اللسانيات**، دار الفكر، دمشق، ط3، 2008م.

17- **اللبدي**، محمد سمير نجيب: **معجم المصطلحات النحوية والصرفية**، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمّان- الأردن، ط1، 1985م.

18- **المرادي**: **الجنى الداني في حروف المعاني**، تحقيق: د فخر الدين قباوة – الأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1413هـ- 1992م.

19- ابن **منظور**: **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.

20- ابن **هشام**: **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، تحقيق: د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر- دمشق، ط6، 1985م.